

9. الوجودية

إذا كانت العقلانية ترى بان عالم الأفكار والعقل هو مصدر المعرفة الصحيحة، وكانت التجريبية ترى بأن الطبيعة والعالم المحسوس هو مصدر المعرفة الصحيحة الممكنة ، فإن هنالك نظرية ثالثة ترى بطريق ثالث بينهما ، ألا وهي الوجودية (existentialisme).

الوجودية فلسفة الحرية والفرد بامتياز، هي تيار فلسفي يضع الوجود البشري أولاً ، مؤكداً أن الفرد حر، وبما أنه حر فإنه قادر على تحديد وصناعة معنى وجوده من خلال أفعاله وخياراته. وقد لخصها جان بول سارتر بعبارة «الوجود يسبق الماهية»، مؤكداً أن الإنسان يظهر أولاً في العالم دون طبيعة محددة سلفاً، ثم يبني نفسه بحرية. وهو المبدأ النقيض للفلسفة العقلانية على سبيل المثال التي تقول بأن الماهية تكون أولاً وهي ما يحدد المعنى وطبيعة الوجود.

■ تاريخ الوجودية

تطور المذهب الوجودي وازدهر عقب أحداث الحرب العالمية الثانية، حيث كان الظروف الانسانية في ذلك الوقت ملائمة لصعود أفكار الوجودية، فقد ساد اليأس من الأديولوجيات التي ادعت انها يمكن ان تقود للازدهار وخلص الانسانية من خلال تبني الطروحات العلمية والقومية ، وفي النهاية قاد الأمر الى دمار هائل وخسائر ومآسي انسانية رهيبة. وهو ما أدى الى صعود تيارات الفردانية على حساب النزعات الجماعية، التي تجعل من الحرية الفردية قضيتها الأولى، وفي هذا السياق كان عصر الوجودية بامتياز، لكن قبل ذلك كان للتيار الوجودي ارهاصات فلسفية.

جذورها في فلسفات القرن التاسع عشر: على الرغم من انتشاره في القرن العشرين، إلا أن رواد هذا التيار الأوائل كانوا في القرن التاسع عشر، وبالتحديد يبرز اسم الفيلسوف الدانيماركي

سورين كيركيغارد ، وهو صاحب نظرية تسمى بالوجودي المؤمنة التي تعالج موضوع علاقة الفرد بالخالق ووجوده والقلق الذي تثيره مختلف الأسئلة الوجودية. محور تفكيره يتمثل في الذات الفردية التي تسعى إلى تحقيق حقيقتها عبر الاختيار الحر. الوجود عند كيركجور تجربة شخصية تتسم بالتوتر بين الممكنات، حيث يصبح الفعل تعبيراً عن الهوية. القلق يظهر هنا كحالة تكشف للإنسان عمق مسؤوليته وإمكاناته

كذلك تبرز أسماء كل من ارثر شوبنهاور وفريدريك نيتشه، الناقدین للعقلانية والتحريرية في آن، والداعين الى فلسفة الحياة التي تجعل الارادة والحرية مركز الذات البشرية في أبعادها المتشائمة عند شوبنهاور والمتفائلة بالإنسان الأعلى عند نيتشه.

• الأسس الفلسفية: يستند هذا التيار إلى الفلسفة الظاهرانية والفينومينولوجيا التي تطورت مع هوسرل وهايدغر. ونجد أنه حتى يتم تصنيف مارتن هايدغر كأحد اقطاب الفلسفة الوجودية عند بعض مؤرخي تاريخ الفلسفة. ذلك أن هايدجر يعيد صياغة سؤال الوجود انطلاقاً من تجربة الإنسان اليومية، فيربط بين الفكر والعيش الفعلي. ويميز بين الوجود الفعلي ، والوجود الزائف الذي نغمرنا فيه الحياة الاجتماعية بعبثيتها.

• ذروة الوجودية ما بعد الحرب العالمية حتى السبعينيات : أصبح جان بول سارتر، بكتابه «الوجود والعدم» (1943)، الأب الروحي للحركة الوجودية في فرنسا، وأصبحت الوجودية الفلسفة الأكثر اشعاعاً عالمياً، وبرزت في هذا السياق أسماء موريس ميرلو بونتي وغيرهم، وكذا نجد اسم البير كامو الذي يصنف في مذهب الوجودية العبثية أو الوجودية المتشائمة. وفي المدى العربي برز اسم المصري "عبد الرحمن بدوي" بتبنيه للمذهب الوجود، وأطروحته الشهيرة "الزمان الوجودي".

■ مبادئ الفلسفة الوجودية

الوجود يسبق الماهية: على عكس الشيء الذي له تعريف مسبق والذي يُصمم لغرض معين (الجوهر والماهية في المذهب العقلاني) ، فإن الإنسان موجود أولاً، ثم يحدد هويته بنفسه من خلال خياراته.

• الحرية والمسؤولية: الإنسان "محكوم عليه بأن يكون حراً". لا يوجد حتمية مطلقة (الطبيعة البشرية، القدر، أو الله) تبرر أفعالنا. فالإنسان حر، وهو من يختار كيف يكون ، وبالتالي فهو مسؤول بالكامل عما يفعله وما هو عليه.

• القلق الوجودي والعبثية: إن إدراك أن للإنسان الحرية المطلقة، وغياب المعنى المحدد سلفاً في الكون يولد القلق الوجودي. وفي هذا السياق يؤكد كامو وسارتر على عبثية البحث عن معنى عقلاني في عالم لا معنى له.

• الالتزام: الوجودية هي فلسفة العمل حيث يجب على الفرد أن يلتزم بنشاط في المجتمع، ومنه مهمة المفكر الوجودي والمثقف في أحداث تغيير في مجتمعه من خلال الانخراط في القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية.

* * *

يعرف عبد الرحمن بدوي الفلسفة الوجودية على أنها مذهب فلسفي يبرز الحرية باعتبارها شرط الفعل، والاختيار باعتباره لحظة تحديد للممكن، والقلق كحالة تكشف عمق المسؤولية، والزمن كإطار يتحقق فيه المشروع الإنساني. هذه المفاهيم تتداخل لتشكّل رؤية ترى الإنسان ككائن يصنع ذاته عبر أفعاله، ويعيش وجوده بوصفه مساراً مفتوحاً على الإمكان.